الجزار والسفاح

بونابارت فى فلسطين
وكليبر فى مصر

د: أحمس حسن صبحي

دار الكتب العلمية
للنشر والتوزيع
القـــاهرة

3

الجزار والسفاح

(بونابرت في فلسطين- وكليبر في مصر)

د. أحمد حسن صبحي

صبحي، أحمد حسن
الجزار والسفاح: بونابرت في فلسطين وكليبر في مصر / أحمد حسن صبحي. ط١- القاهرة
دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع، ٢٠١٠
٦٦ ص، ١٤× ٢٠ سم
تدمك: ٥ ٧٩٦ ٢٨٧ ٩٧٧ ٩٧٨
١- مصر- تاريخ - الحملة الفرنسية (١٧٩٨ -١٨٠١م)
٢- بونابرت، نابليون (١٧٩٨ - ١٨٢١)
٣- الجزار والسفاح (بونابرت في فلسطين وكليبر في مصر
٩٦٢،٠٢
رقم الإيداع ١١٤١١ / ٢٠١٠
الترقيم الدولي 5 - 965 - 287 - 977 - 978

دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع
٥٠ شارع الشيخ ريحان - عابدين - القاهرة
☎ ٢٧٩٤٨٦١٩ - ٢٧٩٥٤٢٢٩
فاكس: ٢٧٩٢٨٩٨٠

لمزيد من المعلومات يرجى زيارة موقعنا على الإنترنت

www.sbhegypt.org
info@sbhegypt.org
sbh@link.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

أخذت حملة بونابرت على مصر عام ١٧٩٨ الكثير من الكتابات، وشغلت العديد من المؤرخين، فرنسيين ومصريين ومن كل الجنسيات. ركزوا كلهم على الجوانب المختلفة لتلك الغزوة، مظهرين أثرها فى اكتشاف الحضارة الفرعونية بعد فك رموز حجر رشيد، وما قام به علماء الحملة من أعمال.

نسى كل المؤرخين، بل تناسوا، حملة بونابرت على فلسطين، والهدف منها. كان نصف جيش نابليون على الأقل من اليهود. جاءوا معه تلبية لنداء وجهة نابليون لليهود للانضواء تحت لوائه فى غزو مصر ثم احتلال فلسطين.

تناسى المؤرخون خطاب بونابرت فى القدس الشريف الذى وجهه إلى جنوده اليهود، يُهنئهم فيه باحتلال القدس ويعدهم بالزحف لاحتلال دمشق ولإقامة دولتهم فى الأرض التى وعدوا بها.

قال وايزمان يصف نابليون بأنه الصهيونى الأول فى العصر الحديث. هكذا تناسى المؤرخون الأوروبيون ذكر

أفعال السفاح الفرنسى فى فلسطين وهدفه من الزحف عليها، أغفل المؤرخون العرب القدماء ذلك التحرك اليهودى، وأهداف الصهانية لأنها كانت غير ذات اهتمام لهم فى تلك الحقبة من التاريخ، غير مدركين لأبعاد التحرك الصهيونى فى أنحاء العالم ودولة القوية المتحكمة فى السياسات الدولية مثل انجلترا وفرنسا وروسيا والدولة العثمانية، وكان اليهود يسيطرون عليها جميعا، يحركونها طبقا لتخطيطهم بهدف الاستيلاء على فلسطين وتهويدها.

لابد من وقفة تاريخية أمام حملة بونابرت على فلسطين، التى أفرزت الكثير من التداعيات على مدى قرنين من الزمان. إن نابليون بونابرت - الصهيونى الأول كما وصفه وايزمان - فتح فلسطين والقدس على مصراعيها لليهود الذين صاحبوه فى حملته علـــى مصر. إن بونابرت يعتبر بحق واضع البذرة اليهودية فى أرض فلسطين بما ترك فيها من يهود لم يعودوا معه إلى مصر، وهو بحق الذى أطلق فكرة الصهيونية من القمقم التى ظلت فيه والتى يجب أن تعود إليه من جديد.

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

* * *



❶

وقف مدرس التاريخ فى الفصل، ينظر إلى تلاميذه. قال لهم:

– أرجو ان تكونوا قد استمتعتم برحلتكم إلى القاهرة ورؤية القلعة، وعرفتم كيف قاوم أهل مصر جنود فرنسا. كيف ضحوّا بأرواحهم . كيف حاربت المصريات إلى جوار الرجال، لا يهابون الموت فى سبيل أرضهم. وعلمتم كم من الآلاف من أجدادنا وجدّاتنا سقطوا شهداء تحرير الأرض الغالية.

ران الصمت على الطلبة. قطعة أحدهم بقوله:

– لقد وعدتنا يا أستاذ ان تحكى لنا عن حملة ذلك الفرنسى المتجبّر على فلسطين.

قال المدرس:

– نعم. وأنا عندى وعدى. كان لابد لى ان أطالع بعض المراجع التاريخية حول عدة نقاط هامة تشرح أبعاد تلك الحملة. التاريخ لابد أن يكون موثقا يا أبنائى. لا يصح الزيف فيه أبدا.



قال أحد الطلبة:

– ولماذا لم يذكر المؤرخون تأثير اليهود على جيش نابليون كما سبق أن أشرت إليه يا أستاذ؟

قال الأستاذ:

– يمكن إغفال بعض الحوادث عند سرد التاريخ لسبب أو لآخر. ولنأخذ تلك العلاقة بين نابليون واليهود مثلا. نجد أن المؤرخين الفرنسيين ركزوا فى تدوينهم لتاريخ الحملة على مصر، على النتائج التى حققوها فى الحملة وإبراز شجاعة نابليون وجنوده. لا يودون أن يظهروا ذلك الجانب اليهودى فى الحملة حتى لا تؤثر على هدفهم الرئيسى من إضفاء الفخر على فترة وجودهم فى مصر.

سأله الطالب فى حماس:

– وماذا عن المؤرخين المصريين يا أستاذ؟

رد الأستاذ على تلميذه يقول:

– وبالنسبة للمصريين يا بنىّ، فإن نابليون وجنده كانوا بالنسبة للمصريين من الفرنسيس. لم يبحثوا فى التكوين العرقى للفرنسيين. وفى ذات الوقت فإن الديانة اليهودية كانت موجودة فى مصر. لهم معابدهم، وحريتهم الدينية مكفولة لهم. كان يهود مصر يعيشون جنبا إلى جنب مع أقباط مصر ومسلميها.

ولم تكن هناك أى نوع من التفرقة أو العقد التى تحكم العلاقة بين المصريين وبين اليهود. لم يتنبه المؤرخون المصريون فى ذلك الوقت إلى المشكلة التى خلقها اليهود باحتلال فلسطين بعد نحو قرن ونصف من حملة نابليون على تلك الأرض.

وقف طالب يسأل أستاذه قائلا:

- وهل ذكر بعض المؤرخين المعاصرين تلك الحقائق عن نابليون واليهود؟

رد الأستاذ وابتسامته مرسومة على وجهه:

- نعم يا بنى. ولعلى أذكرك بأول حديثى عندما قلت لكم أنه كان علىّ أن أعود إلى بعض المراجع قبل الحديث عن الحملة البونابرتيه على فلسطين. التاريخ لا يمكن العبث به أبدا. قد يتعمد البعض إغفاله لفترة من الزمان، لكنه فى النهاية حقائق لابد وأن تظهر مهما طال عليها الدهر. لقد جئتكم بالمراجع والنصوص لأقرأها عليكم أثناء الحديث.

ران الصمت مرّة أخرى على الجالسين. فقال المدرس:

- هل أبدأ الآن يا أبنائى؟

وأجاب الطلبة جميعا:

- تفضل يا أستاذنا.

* * *



2

كان احتلال السويس هو الخطوة الأولى فى مخطط نابليون للزحف على فلسطين. هدفه المعلن هو حصار بريطانيا، عدو فرنسا اللدود، ثم حماية حدود مصر الشرقية. وجاء زحف الجنود العثمانيين على مصر واحتلال قلعة العريش، هدفا ثانيا أمام نابليون لحماية مصر أمام المصريين.

رزحت كل منطقة المشرق العربى والمغرب العربى وشبه الجزيرة العربية، وكل الأقطار التى تدين بالإسلام تحت الاستعمار العثمانى، وكانت مصر من بين تلك الأقطار، فدخلها العثمانيون عام ١٥١٧م، واستقروا بها. أصبحت كل تلك المنطقة تابعة للسلطان العثمانى، يعين لها الولاة، ويأخذ منها خيراتها بكل الطرق. يحكم العثمانيون بالحديد والنار فى تلك الأقطار المسلمة، يمارسون فيها كل أنواع الظلم والقهر، ويفرض على المسلمين الدعاء للسلطان فى صلاة يوم الجمعة.

كان العثمانيون يضعون فى كل قطر حامـــية عسكرية

عثمانية قوية، تستطيع أن تقاوم أى ثورة يقوم بها أهالى ذلك الإقليم. ففى مصر مثلا، كانت هناك بارجة عثمانية تقف بميناء الإسكندرية، وفى القاهرة حامية فى القلعة، وكان أمر النظام فى مصر موكولا إلى المملوكين مراد بك وإبراهيم بك إلى جانب تكليفهما بجمع الضرائب من المصريين وتسليم الخراج المفروض على مصر إلى الوالى التركى، يبعث بجزء منه إلى السلطان العثمانى فى الآستانة،ويبقى لنفسه الجزء الأكبر. واحتفظ العثمانيون بحامية عسكرية فى يافا، وأخرى فى عكا.

اهتم العثمانيون بحامية عكا. فهى الباب إلى حدود الدولة العثمانية. إذا مرّ منها جيش قادم من مصر واستطاع اجتيازها، فإن الطريق إلى آسيا الوسطى اصبح مفتوحا أمامه لغزو الأراضى العثمانية. ومن هنا كان اهتمام العثمانيين الشديد بتقوية حامية عكا، التى كانت محاطة بأسوار عالية منيعة، يمكنها إعاقة أى غازى.

اختار السلطان العثمانى لقيادة حامية عكا أحمد باشا الجزار، الذى عرف بالقسوة والظلم، فكان أول ما فعله هو إعادة إصلاح سورها وقلاعها، واستكثر من شراء المماليك وتدريبهم على الفروسية والقتال. لم يكن اهتمام أحمد باشا الجزار، بالمماليك راجعا إلى نقص جنوده، وإنما لأنه كان مملوكا من أهل البوسنه،عاش فى مصر فى خدمة تابع على بك الكبير، وتعلم الفروسية واشتهر بشجاعته ومكره.

كلفه سيده بإخماد تمرد من عرب البحيرة، فاستخدم مكره في دعوة رؤساء العرب فى مكان واحد ثم قتلهم جميعا. قتل أكثر من سبعين شيخا مرة واحدة، فأسموه الجزّار منذ ذلك الحين. هرب من مصر وأقام فى عكا فاشتهر اسمه بها، فاختاره السلطان حاكما للمدينة.

بلغ النفوذ اليهودى فى فرنسا مداه، واستطاع ذلك النفوذ ان يسقط عرش إمبراطورها وقيام الثورة الفرنسية. كان المليونير اليهودى روتشيلد وأسرته، يسيطرون على مقاليد الحكم فى فرنسا عن طريق الماسونية - وكان نابليون من بين الماسونيين فى فرنسا. كان اقتصاد ومالية فرنسا كلها فى يد اليهود هناك. ومن يعود إلى التاريخ الفرنسى فى تلك الحقبة، يدرك السبب الأوحد الذى جعل رجال الثورة الفرنسية يسيئون إلى رجال الدين المسيحى فى فرنسا، وإهانة رموزه المتمثلة فى الكاردينالات والأساقفة الكاثوليك، وتجريدهم من أموالهم وممتلكاتهم واهانتهم. فحقد اليهود على غير اليهود أمر لا يحتاج إلى براهين.

كان طموح نابليون فى ركوب موجة الثورة الفرنسية، لا يقف أمامه شئ. أدرك قوة اليهود وهو يعد لحملته على مصر، التى سوف يتخذها قاعدة لبناء امبراطوريته فى الشرق، فنادى بونابرت اليهود الفرنسيين الذين طالبوا بإحياء القدس القديمة، للتجمع تحت رايته لغزو مصر. وكان يهود فرنسا قد طالبوا حكومة الثورة الفرنسية عام

١٧٩٨ بمساعدتهم على إنشاء دولة فلسطين فى ظل حماية فرنسا، لكن الحكومة الثورية الفرنسية، كانت مشغولة بالثورة على أرضها، وإخضاع الأقاليم الأوروبية التى تحتلها، فلم تهتم بطلب يهود فرنسا. التقط نابليون الخيط، ودعا اليهود إلى الانخراط فى جيشه الغازى لمصر كخطوة على طريق تحقيق حلم اليهود فى إقامة دولة لهم فى فلسطين.

اختار بونابرت بعض القواد جيشه من اليهود، وعلى رأسهم الجنرال " زيون شلك " الذى عينه مديرا للمنوفيه والغربية، والذى أطاح برءوس الآلاف من المصريين، وارتكب فيها من المذابح ما لا يعد ولا يحصى.

عندما أعلنت الدولة العثمانية الحرب على فرنسا بعد غزو مصر، تحالفت مع بريطانيا وروسيا، العدوتان اللدودتان لفرنسا، ضدها ليضمن العثمانيون تدعيما قويا ضد المحتل الفرنسى لجزء من أملاكها. ووجدت بريطانيا وروسيا فى التحالف مع العثمانيين الفرصة الكبرى لتحقيق أطماعهما فى الأقاليم التى تحتلها وتسيطر عليها الدولة العثمانية.

كان من نتيجة ذلك التحالف، التواجد البحرى البريطانى والروسى فى البحر المتوسط تحت اسم معاونة العثمانيين، وضرب فرنسا عسكريا حتى لا تغرى انتصاراتها الشعوب الأوروبية على الثورة مثل ما فعلته الثورة الفرنسية.

أرسلت بريطانيا أسطولها ليحرس شواطئ فلسطين وحمايتها إذا ما فكر بونابرت فى مهاجمتها، وفى نفس الوقت لمنع أى سفن فرنسية من الاقتراب من تلك الشواطئ القريبة من مصر.

أدرك بونابرت أن الظروف الدولية ليست فى صالحة بعد التحالف العثمانى مع الإنجليز والروس، وإعلانه الحرب على فرنسا. فكتب إلى حكومته يحثها على محاولة عقد صلح مع السلطان العثمانى، وتأكيد أن فرنسا لا تهدف من احتلال مصر سوى طرد المماليك، وأن العلاقات القديمة بين فرنسا والدولة العثمانية القائمة على التعاون والصداقة لابد أن تعود، إلى آخر تلك العبارات الدبلوماسية، لكن السلطان العثمانى رفض باستمرار وبإصرار محاولات نابليون لعقد الصلح مع فرنسا، فقد كان الانجليز والروس يغذيان روح العداء العثمانى تجاه الفرنسيين، وهم يرون بونابرت يفتح مصر ويثبت أقدامه فيها.

لا يمكن إنكار مدى الفطنة العسكرية وروح القيادة والإقدام التى كان بونابرت يتمتع بها. كان الفرنسى الماكر، عبقريا فى التخطيط الحربى، له رؤية واضحة فى كل معركة يخوضها. يرتب لها ما يلزمه ويعرف حدوده وإمكانياته.

قرر بونابرت أن يخرج فى حملته إلى سوريا بعد أن يعيد الهدوء إلى القاهرة، واختار شهر رمضان المعظم ليبدأ الحملة، لكنه عهد إلى أحد جنرالاته الموجود مع حاميته بالشرقية، أن يتقدم فى سيناء واحتلال قرية "قطية". وأعطاه الأوامر بتحصين تلك القرية لتكون نقطة ارتكاز وتموين للجيش الفرنسى الزاحف.

عندما تم للفرنسيين احتلال تلك القرية وإعدادها كقاعدة عسكرية،ظل بونابرت طوال شهر يناير ١٧٩٩ يرسل بالفرق الفرنسية إلى تلك القرية فى سرّية تامة، ويرسل إليها بالذخيرة والعتاد والمؤن. تحركت فرقة الجنرال "رينية "، ومن بعدها فرقة الجنرال " كليبر " إلى " قطية" وعسكرت بها.

جاء اليوم الخامس من شهر رمضان المعظم عام ١٢١٣هـ - ١٠ فبراير ١٧٩٩م - وكان الهدوء يخيّم على القاهرة فى ذلك الشهر الفضيل، فخرج بونابرت فى جنوده، متجها إلى فلسطين فى حملته عليها، واصطحب معه أيضا الصنّاع من الحدادين والنجارين.

وصل بونابرت أمام العريش بعد أربعة أيام من خروجه من مصر، وكانت القوات العثمانية، ومعها المماليك الذين فروا من مصر وأقاموا بالعريش، على استعداد لمواجهة القوات الفرنسية الزاحفة. التحم الفريقان يوم ١٥ فبراير، ودار قتال عنيف انتهى فى ليلة ذلك اليوم بهزيمة

العثمانيين هزيمة نكراء، لكن قلعة العريش، ظلت تقاوم القصف الفرنسى حتى سلمت يوم ٢٠ فبراير ١٧٩٩. بعث بونابرت إلى القاهرة بالأعلام العثمانية التى استولى عليها الفرنسيون، ومعها الأسرى من المماليك، بعفو من بونابرت بعد تجريدهم من السلاح.

استراح بونابرت يوما فى العريش يحصى ما غنمه من العثمانيين، ثم تابع سيره زاحفا على فلسطين، فاحتل "خان يونس" ثم "غزة"، فاستولى عليهما دون أى مقاومة عسكرية. أقام الجيش الفرنسى فى "غزة" عدة أيام يعيد فيها ترتيب أحواله ويستريح، استعدادا لاستكمال الزحف.

استأنف الفرنسيون الزحف على فلسطين يوم ٢٨ فبراير، فاحتل "الرملة" ثم " اللد " ووصل تجاه مدينة "يافا" يوم ٣ مارس. كانت حامية المدينة العثمانية، حامية قوية بها جيش عثمانى يقوده عبد الله باشا، ينتظر بونابرت على أسوار قلعة المدينة.

قام بونابرت بحصار "يافا" لمدة أربعة ايام، يضربها بالمدافع قصفا متواصلا لا هوادة فيه، نتج عنه مقتل ألفى جندى عثمانى، واضطرت الحامية العثمانية إلى طلب التسليم.دخل الفرنسيون المدينة، وساقوا خارج أسوارها ثلاثة آلاف جندى عثمانى رافعين أيديهم بعد أن أعطاهم الفرنسيون الأمان.

عندما دخل الفرنسيس "يافا"، يقفزون فوق الأطلال التى خلفتها قذائف مدافعهم، وفـــوق الجثث التى ملأت طرقات المدينة من الجنود والأهالى، أحسّوا بنشوة النصر وشهوة القتل، فعملوا سيوفهم وسنكهم فى قتل كل من يرونه أمامه من أهل "يافا". نهبوا كل ما وجدوه فى المدينة، واغتصبوا كل النساء اللاتى تقع أبصارهم عليهن.

اقتضى الأمر انقضاء عدة أيام حتى أوقف جنود بونابرت أعمال القتل والنهب والسلب فى يافا، فى الوقت الذى ظلت فيه الجثث والدماء تملأ طرقات المدينة، وخرجت الفئران من جحورها تنهش فى جثث القتلى التى بدأت فى التعفن.

ذهب ياور نابليون إلى قائده وقال له:

– ماذا نفعل فى الأسرى العثمانيين ياجنرال بونابرت؟

سأله بونابرت:

– كم عددهم ياكروازييه.

فقال الياور:

– ثلاثة آلاف يا سيدى الجنرال.

قال بونابرت:

– وماذا نفعل بهم؟ إنهم عبء كبير على جيشى.

نظر اليارو بقلق إلى قائده وقال له:

- لقد أعطيتهم الأمان يا سيدى الجنرال باسمك عندما طلبوا التسليم كأسرى حرب.

رد الفرنسى المتكبر فى غير اكتراث قائلا:

- نعم. أعرف. إنهم عبء كبير.

لم يتردد بونابرت فى قراره. نظر إلى ياوره وقال له:

- خذهم بعيدا عن المدينة. اجعلهم يقفون على شاطئ البحر، لحين أخرج إليهم وأرى ماذا أفعل لهم.

لم يكن بونابرت فى حاجة إلى التفكير فى أمر أولئك الذين سلموا أنفسهم كأسرى حرب بعد أخذ الأمان. كان قرار بونابرت هو قتل أولئك الآلاف الثلاثة.

اصطف ثلاثة آلاف جندى عثمانى على شاطئ "يافا"، وأعطى بونابرت تعليماته لفرقة فرنسية، بضرب الأسرى بالمدافع والبنادق، فهم عبء كبير على جيش فرنسا سوف يعطل زحفه المقدس على فلسطين.

كان من بين الأسرى فى "يافا"، أربعمائة مصرى، من بينهم السيد عمر مكرم نقيب الأشراف الذى هاجر من مصر بعد معركة "امبابة". استدعى بونابرت السيد عمر مكرم وقال له:

- لماذا تركت مصر ولجأت إلى العثمانيين؟

وقال له السيد عمر مكرم:

- لم استطع أن أرى بلدى يحتلها الأجانب.

فابتسم الفرنسى الماكر وأكد للمصرى أنه ما جاء إلى مصر إلا لطرد المماليك والعثمانيين الذين أذاقوا الشعب المصرى كل ألوان الظلم والقهر. وأبلغه قراره بإعادته إلى بلده وإكرامه، فهو يعرف مكانه السيد عمر مكرم نقيب الأشراف فى مصر.

حاول بونابرت اقناع باقى المصريين بالانضمام إلى جيشه، مدعيا أن الجيش هو جيش مصر وليس جيش فرنسا، لكنهم رفضوا جميعا عرض بونابرت، فقرر بونابرت إعادتهم مع السيد عمر مكرم إلى مصر.

غنم الفرنسيون فى "يافا" الكثير من المؤن والذخيرة والمدافع، وبادر بونابرت بإرسال أخبار الاستيلاء على يافا وهزيمة العثمانيين إلى القائد الفرنسى فى القاهرة، وأخبره أن العدو العثمانى خسر نحو أربعة آلاف قتيل، ولم يذكر شيئا عن مذبحته اللاأخلاقية والتى تخالف كل الأعراف الدولية، بقتل ثلاثة آلاف أسير حرب دفعة واحدة. وطلب الفرنسى السفاح من قائده فى مصر ان يذيع تلك الأنباء على الديوان، ليخبر بدوره شعب مصر بانتصار الفرنسيس.

كان لاستيلاء الفرنسيين على يافا فى هذا الوقت القصير، تأثير معنوى كبير فى مصر لأن الناس فيها لم

يكونوا يتوقعون أن يتم للفرنسيين ذلك النصر بتلك السرعة، بل كانوا يعيشون بأمل هزيمتهم على يد العثمانيين. كانت تلك الأنباء عاملا ثانيا فى هدوئهم واستكانتهم والتسليم بالأمر الواقع.

* * *

3

زحف جيش بونابرت تجاه "عكا"، فاحتل "حيفا" دون مقاومة، وانتشرت فرق نابليون العسكرية شرقا وشمالا، تحتل القرى والبلدان، وبونابرت ينتظر مدفعيته الثقيلة التى تحملها السفن الفرنسية من دمياط والإسكندرية حتى يافا.

كان الأسطول الانجليزى يراقب شواطئ الشام وفلسطين، واستطاعت البوارج الانجليزية أسر نصف الأسطول الفرنسى المكون من سبع سفن تجاه "حيفا ". تسلمت حامية " عكا " المدافع والذخيرة الفرنسية،فأمر أحمد باشا الجزار بنصبها فوق القلعة لضرب الفرنسيين بها. أما النصف الثانى من أسطول نابليون، فقد نجا من الحصار البحرى الانجليزى ووصل إلى يافا، فأنزلت ما على ظهرها من مدافع وذخيرة، ساقها بونابرت حتى أسوار "عكا".

وأثناء ذلك، توغلت كتائب جيش بونابرت فى أنحاء فلسطين، فاحتلت مدن " صفد " و"صور" و "طبرية".

ووصل بونابرت إلى القدس، واتخذها مقرا لقيادته فى الشام. ثم أصدر أوامره بحصار "عكا" تمهيدا لاحتلالها.

عندما رأى أحمد باشا الجزار، جنود فرنسا يحيطون بقلعة " عكا " وأسوارها، خطب جنوده قائلا لهم:

– تعلمون ما حدث لثلاثة آلاف جندى عثمانى سلّموا كأسرى حرب فى يافا لذلك السفاح فقتلهم دون رحمة ودون إنسانية. هل نستسلم للسفاح؟

فصاح الجند رافضين أن يستسلموا للفرنسيين مهما حدث لهم. قال لهم أحمد باشا الجزار:

– فلنحارب ولندافع عن "عكا" حتى آخر جندى لدينا.

سوف ننتصر بإذن الله وننتقم للشهداء فى يافا.

وسرت الحميّة فى دماء الجند العثمانيين. كان ذلك هو العامل الأول وراء القتال الباسل الذى دار بينهم وبين الفرنسيين. ومن ناحية أخرى، فقد قام الأسطول الانجليزى المرابط أمام "عكا" بضرب القوات الفرنسية التى تحاصر "عكا"، بالقنابل مكثفا أوقع بهم خسائر جسيمة.

وعلى الجانب الفرنسى، فإن الجثث والدماء التى ظلت مكانها فى "يافا" لعدة أيام أثناء تكالب الجنود الفرنسيين على سلب المدينة، أفشى وباء الطاعون بين الجنود، فحصد من أرواحه الكثيرين. واضطر بونابرت إلى

المرور بين المرضى لإعادة الروح المعنوية المنهارة بين جنوده.

بدأ بونابرت ضرب أسوار وقلعة "عكا" يوم ١٩ مارس ١٧٩٩، ثم هجم جنوده على المدينة، لكن العثمانيين استبسلوا فى الدفاع عن مدينتهم واستطاعوا رد الهجوم الفرنسى، فكانت تلك هى الهزيمة الأولى التى لقيها بونابرت منذ زحف على مصر وفلسطين. كانت خسائر الفرنسيين فادحة، اقتضت من الفرنسى المتغطرس أن يعيد تضميد جراحة وتنظيم جيشه ثم أعاد الهجوم على " عكا " يوم أول إبريل بعد ضرب جزء فى السور بالمدافع ضربا مركزا حتى استطاع فتح ثغرة فيه، هجم منها الفرنسيون على المدينة، لكن جنود الحامية دافعوا عن بلدتهم دفاع المستميت وهم يدركون أن أمامهم خياران، إما الموت وإما الانتصار. ولم يجد بونابرت أمام خسائر جنده فى ذلك الهجوم سوى سحب جيشه من تحت أسوار "عكا"، بعد أن نال هزيمته الثانية.

استمر حصار بونابرت لعكا لأكثر من شهرين، عجز خلالهما عن اقتحام المدينة، فعقد مجلسا حربيا من قوّاده، وتداولوا فى الأمر، واستقر رأيهم على رفع الحصار عن عكا بعد فشل الفرنسيين فى احتلالها. خسر الفرنسيون ٢٢٠٠ قتيل منهم ألف جندى وضابط ماتوا بوباء الطاعون، وبلغ عدد الجرحى نحو ٢٥٠٠ جندى وفقد الجيش نخبة من

قواده، كان أهمهم الجنرال "كافريللى" أبو خشبه - كبير المهندسين وعدد من الجنرالات ومعظم ضباط الفرقة الهندسية.

وإلى جانب ذلك الموقف الصعب الذى واجهه بونابرت، فإن الإمدادات الحربية من مصر كانت فى شبه المستحيل، بينما تنهال الإمدادات العثمانية على أحمد باشا الجزار.

يفصح تاريخ بونابرت الحربى عن مدى إصراره على تحقيق انتصاراته مهما كانت الظروف، لكن العوامل الدولية التى لم يفصح عنها لقواده فى المجلس الحربى، أجبرته على اتخاذ قرار الانسحاب. جاءته الأنباء بأن العثمانيين يحشدون جيشا عرمرما لغزو مصر، منتهزين فرصة انشغال بونابرت بمحاولة احتلال " عكا "، فيهجمون على الإسكندرية للقضاء على الجيش لفرنسى الصغير الموجود فى مصر.

وجاءته أيضا الأنباء من مصر، تزف إليه أخبار القلاقل والثورات التى اندلعت فى الشرقية والدقهلية ثم فى البحيرة وفى الصعيد. وبلغه أيضا ظهور البوارج الانجليزية فى البحر الأحمر واقترابها من السويس.

وتلقى بونابرت تقارير فرنسا وموقفها الحربى فى أوروبا والتحالف المضاد لها وثورة الأقاليم التى كان بونابرت قد فتحها فى النمسا وإيطاليا.

استقر رأيه على العودة إلى مصر فى أسرع وقت ممكن حتى يمكنه تدبير أمر جيشه فى مصر. ويبدو أن نابليون بونابرت قرر فى تلك الأيام ضرورة عودته إلى فرنسا وانتهاز الفرصة للسيطرة عليها وتحقيق أحلامه التى لا تنتهى.

كانت هزيمة بونابرت فى "عكا" كالشوكة فى ظهره. لم يهتم أبدا بخسارة معركة ضد جيش أوروبى، لكن هزيمته أمام جيش شرقى عثمانى، هو الذى أوجد فى حلقه غصّة لازمته حتى مات وغادر هذه الدنيا التى ملأها دما ولحما وعظاما.

أصدر بونابرت اثر انتهاء المجلس الحربى يوم ٢١ مايو ١٧٩٩، قزاره بالانسحاب من "عكا". وبعث بالمرضى والجرحى إلى حيفا، وفى الساعة العاشرة مساء، بدأت فرق الجيش ترحل عن عكا، بحيث لم يشعر المدافعون عن المدينة برفع الحصار إلا صباحا بعد أن تم انسحاب الفرنسيين.

ترك بونابرت جنوده المصابين بالطاعون فى حيفا، ثم أخلى المدينة، ومن ورائها باقى المدن الساحلية "يافا" و"الرملة" و"غزة" وأمر بونابرت بنسف حصونها وإغراق مدافعه وذخيرته التى لم يستطع أخذها معه، فى البحر، ثم أمر بحرق القرى الواقعة بين "يافا" و "غزه"، ونهب المواشى من الأهالى وخرّب كل قرى تلك الجهات تخريبا

تاما بحجة تعطيل زحف الجيش العثمانى على مصر.
وصل بونابرت إلى "خان يونس" يوم ٣١ مايو ١٧٩٩، ليبدأ منها مرحلة الانسحاب الأخير إلى مصر.

كانت انتصارات بونابرت الأولية فى حملة فلسطين مدعاة فخر للفرنسيين فى بلادهم، ينشرون أنباء تلك الانتصارات بالزهو والفخار. وفى اليوم الثانى والعشرين من مايو ١٧٩٩، نشرت جريـــدة "المونتير"

الناطقة بلسان الحكومة الفرنسية فى باريس ما يلى:

– (لقد أمر نابليون بإصـــدار منشور يدعو فيه جميع يهود آسيا وأفريقيا إلى الانضمام إلى بيارقه، من أجل بنـ... مدينة القدس القديمة، وقد جنّد فى جيشه عددا كبيرا منهم،وهاهى كتائبهم تهدد مدينة حلب.)

كانت الأنباء تصل إلى فرنسا بعد عدة شهور، عن طريق السفن، أسرع وسائل الانتقال فى ذلك الوقت. فعندما نشر ذلك الخبر فى باريس، كان جيش نابليون قد انسحب قبل نشره بيوم.

أما المنشور الذى أذاعه بونابرت من القدس على جنوده من اليهود فيقول نصه:

– (من نابـــليون القـــائد الأعلى للقـــوات المـــسلحـــة للجمهورية الفرنسية فى أفريقيا وآسيا، إلى ورثـــة فلـــسطين الـــشرعيين. أيها الإسرائيليون، أيـــها الشعب

الفريد الذى لم تستطع قوى الفتح والطغيان أن تسلبه اسمه ووجـــوده القومى، وإن كــــانت قد سلبته أرض الأجـــداد. إن الجـــيش الذى أرسلتنى العناية الإلهيه به، والذى يقوده العـــدل، ويواكبه النصر، جعل القدس مقرا لقيادتى، وخلال بضعة أيام سينتقل إلى دمشــــق المجاورة، التى لم تـــعد ترهب مدينة داود. يا ورثة فلسطين الشرعيين إن الأمة التى لا تتاجر بالرجال والأوطان - كما فعل أولئك الذين باعـــوا أجدادهم لـــجميع الشعــــوب - دعوكم للاستيلاء على إرثكم، بل لأخذ ما تم فتحه والاحـــتفاظ به، بضـــمانها وتـــأييدها، ضد كل الدخلاء. سارعوا، إن هذه هى اللحظة المـــناسبة التى قد لا تتكرر لآلاف السنين، للمطالبة باستعادة حقوقكم ومكانتكم بين شعوب العالم، تلك الحقـــوق التى سلبت منكم لآلاف السنين، وهى وجـــودكم السياسى كافة بين الأمم، وحقـــكم الطبيعى المطلق فى عبادة يهوه، طبقا لعقيدتكم،علنا، وإلى الأبد).

ومن الواضح ان هذا البيان الذى أذاعه بونابرت على جنده من اليهود، كان قبل حصار عكا، بإشارته إلى أن الطريق إلى دمشق أصبح مفتوحا، وهو الذى كان يظن أن فتحه "عكا" لن يستغرق سوى أيام، كـــما فتح "يافا" من قبل واغتال من أبنائها الآلاف بلا قتال.

ومن الجدير بالذكر أن الجنرال "داماس" رئيس اركان الجيش الفرنسى ، قدر عدد الجنود فى شهر سبتمبر ١٧٩٨

بثلاثة وثلاثين ألف مقاتل، وقدر عددهم فى مايو ١٧٩٩ باثنين وعشرين ألف مقاتل. ولاشك أن عدة الآف من الجند اليهود بقوا فى فلسطين، هكذا يقول المنطق والحساب.

قام بونابرت وجيشه بالرحيل إلى العريش صباح أول يونيه ١٧٩٩، وأمر جنده بالراحة فى العريش بعد الإرهاق الذى نال منهم فى سيرهم مترجلين من "خان يونس" حتى "العريش". ولم يضيع بونابرت وقته أثناء وجوده فى العريش، بل توجه إلى قلعة المدينة، وتفقد حصونها.

كان اهتمام بونابرت بقلعة العريش يعكس تفكيره فى حدود مصر التى كان ينوى اتخاذها مركزا لإمبراطورية الشرق النابولونية التى يحلم بها. كانت آبار المياه فى العريش هى وسيلة الشرب الوحيدة لمن يقطع الصحراء من سوريا إلى مصر والعكس. كما أنها كانت بوابة الدخول إلى مصر.

قام بونابرت بوضع بعض المدافع فى القلعة لتدعيم دفاعاتها، وأبقى بها الذخائر والمؤن، ودعم دفاعاتها بزيادة عدد الجنود فيها. وعندما اطمئن الفرنسى المتعجرف على تأمين قلعة العريش، غادرها وبقايا جيشه وراءه يوم ٣ يونيه، فوصل "قطية" فى اليوم التالى، ومنها مضى إلى القاهرة، مارا بمدينة "الصالحية" ثم "بلبيس" ثم "المرج".

انفصل الجنرال كليبر بفرقته، عن بونابرت وجيشه فى "قطية"، وسار منها إلى دمياط حيث بقى بها لحماية الشمال المصرى.

انتهت حملة بونابرت على فلسطين واستغرقت ١٢٥ يوما، وعادت إلى حيث بدأت من القاهرة. كل ما جناه الفرنسيون منها، الهزيمة والخسران لهم، وآلاف الشهداء من العرب والمسلمين والعثمانيين، وكأن الدم الذى يريقه بونابرت بلا حساب، هو نخب عظمته وقوته، يسكبه على الأرض فى نشوة المحموم المتجبر.

عندما وصل بونابرت إلى القاهرة، واستعرض الحالة التى أصبح عليها جيشه فى مصر، أيقن أنه من المستحيل عليه الاستمرار فى حكم هذه الأرض التى لاتريد أن تهدأ تحت أقدامه. ففى كل يوم، تثور قريةأو مدينة فى الدلتا أو فى الصعيد تقاتل الفرنسيين بلا هواده و بلا سلاح.

ويتابع بونابرت أنباء مراد بك الذى لايزال يحاول تجميع قوات العربان والمماليك والفلاحين، لمناوشة الفرنسيين فى كل مكان، متخذا من صحراء الفيوم ملجأ له يحتمى به من الجيش الفرنسى.

وينزعج القائد الفرنسى من أنباء حشد العثمانيين لجيش كبير يقف على ظهر أسطول عثمانى انتظارا للنزول على شواطئ مصر، ومع العثمانيين عماره بريطانية قوية، تراقب شواطئ مصر من الشمال، ومن الشرق، تمنع وصول أى سفن فرنسية إلى الإسكندرية قد تحمل لبونابرت المؤن والذخائر.

كان قراره بالسفر إلى فرنسا هو ما استقر عليه رأيه منذ هزيمته وفشله فى فتح فلسطين والوصول إلى الدولة العثمانية، لفرض شروطه للصلح معها والتهام مصر من حكم العثمانيين.

وجاءت معركة "ابو قير" البرية، التى انتصر فيها بونابرت على العثمانيين انتصارا ساحقا فى أيام، وأسر قائدهم مصطفى باشا والآلاف من الجنود العثمانيين، لكنه بفكر الجندى المحترف، عرف أن ذلك الانتصار هو فرصة لالتقاط الأنفاس، سوف تعقبه بلا شك معارك أخرى ستدور رحاها على أرض مصر.

اختار بونابرت أن يكون الجنرال "كليبر" هو خليفة فى حكم مصر بما عرف عنه من قسوة وغلظة، ومهارة عسكرية فى نفس الوقت. أعد له كل التعليمات والخطط ومنحه الإذن بعقد الصلح أو الانسحاب من مصر إذا تأزمت الأمور فيها، وهو متأكد من أن العثمانيين والانجليز لن يكفوا عن محاولة طرد الفرنسيين من مصر.

* * *

4

ترك بونابرت مصر، وسافر سرّا إلى بلده، تاركا مكانه فى قيادة الجيش الفرنسى بمصر إلى الجنرال كليبر. شعر القائد الفرنسى وهو يتسلم مهمته فى القاهرة، أنه من المستحيل أن يشعر شعب مصر بالمودة تجاه الفرنسيين. فعلى الرغم من الهدوء الظاهرى الذى خيم على القاهرة وخاصة بعد هزيمة العثمانيين المخزية فى "أبى قير"، إلا أن المشاعر المصرية كانت عدائية تجاه الفرنسيين.

نادى "كليبر" المسيو "بوسليج" المسئول عن إدارة الشئون المالية فى مصر وسأله عن رأيه فى الشعب المصرى والسر فى عدم الاستجابة للتعاون مع الفرنسيين فقال له:

- يمكن اعتبار الشعب المصرى رغم ثوراته ضدنا شعبا وديعا. لكنه يكرهنا وهيهات أن يحبنا مع أننا نعامله بأحسن ما يمكن أن تعامل به بلاد محتلة.

وسأله كليبر عن الأسباب فى رأيه. فقال "بوسيلج":

- إن اختلاف العادات واختلاف اللغة وخاصة الدين، كلها عقبات لا يمكن تذليها، وتحول دون إيجاد

صلات الود بيننا وبين المصريين. إنهم يمقتون حكم المماليك، ويرهبون نير العثمانيين ولا يحبون حكمهم، لكنهم لا يطيقون حكمنا ولا يصبرون عليه إلا بأمل التخلص منه.

اقتنع كليبر برأى مساعده وهو يرى حالة شعب مصر النفسية، ودرس موقف الجيش الفرنسى فيها وعرف إجمالا الحالة العامة فى أوروبا وفرنسا، واقتنع بأن لا فائدة ترجى من استمرار الاحتلال الفرنسى لمصر وأن مصيره الفشل. لم يجد وسيلة خير من إنهاء ذلك الاحتلال بطريقة تنقذ شرفه العسكرى، فحاول الدخول فى مفاوضات للصلح مع السلطان العثمانى فبعث له برسالة مطولة عن مقاصد فرنسا فى مصر من محاربة المماليك وأنها حافظت على حق الدولة العثمانية. ولم يرد العثمانى، وهو يظن أن رسالة نابليون إليه ثم رسالة كليبر تعنى أن الفرنسيين فى وضع سيئ.

كانت الدولة العثمانية فى ذلك الوقت تعد للحملة البحرية على مصر، تساندها حملة بريه من الشام. لكن العثمانين لسوء تدبيرهم، أرسلوا الحملة البحرية المكونة من ثلاث وخمسين سفينة تحمل سبعة آلاف جندى من جنود الإنكشارية فنزلت فى ميناء دمياط. ودارت معركة "عزبة البرج" قرب دمياط بين الفرنسيس والعثمانيين، ولقى العثمانيون هزيمة نكراء أخرى، قتل منهم نحو ثلاثة آلاف عثمانى وأسر منهم ثمانمائة.

أدرك "كليبر" أنه لا سبيل أمامه فى الحفاظ على ما تبقى من جيش فرنسا، سوى عقد صلح مع العثمانيين على أساس الرحيل عن مصر بطريقة مشرّفة، فاتصل بالإنجليز والعثمانيين واتفق على التفاوض على أساس الجلاء عن مصر.

وفى تلك الأثناء، هجم الجيش العثمانى على العريش واستطاع احتلالها بعد أن سلمت قلعتها بسبب ثورة الجند الفرنسيين الذين سئموا القتال المستمر.

تحرك كليبر وجيشه إلى الصالحية استعدادا لمحاربة العثمانيين فى العريش،وبدأت المفاوضات فى تلك المدينة بحضور الفرنسيين والعثمانيين وحليفتيها من الإنجليز والروس. وانتهت تلك المفاوضات بتوقيع معاهدة الصلح التى عرفت باسم (معاهدة العريش) يوم ٢٤ يناير سنة ١٨٠٠ والتى لـم توقع عليها انـجلترا، وقضت المعاهدة بأن يرحل الفرنسيون بأسلحتهم وذخائرهم على السفن الفرنسية والسفن التى تعدها الدولة العثمانية لنقلهم إلى فرنسا خلال ثلاثة شهور. ونصت المعاهدة أيضا على تحديد مواعيد جلاء الفرنسيين عن مختلف الأقاليم المصرية خلال تلك الفترة وتسليم المواقع التى يخليها الفرنسيون إلى الجيش العثمانى.

عاد كليبر إلى القاهرة وبدأ استعدادات الجلاء، ووصل أيضا للقاهرة مندوب تركيا الذى مارس عمله بطريقه

أساءت إلى مشاعر المصريين، خاصة بعد أن فرض على المصريين دفع غرامة باهظة إلى جانب احتكار كل الأقوات الموجودة فى مصر باسم السلطان العثمانى.

وشهدت مصر فى كل يوم، وصول عدد من الجنود العثمانيين، وفى ركابهم المماليك، يأمرون ويشمخون بأنوفهم ويعودون إلى أساليبهم ومظالمهم ويفرضون على الأهالى، ما شاءت أهواؤهم من الغرامات والأتاوات. وكان الفرنسيون ملتزمين بنصوص المعاهدة، فيسلمون القلاع والبلاد إلى الجنود العثمانيين، غير عابئين بالمصريين وما يلاقونه من مظالم الأتراك والمماليك.

أعد "كليبر" السفن الفرنسية الموجودة بمصر، وقام بإرسال بعض قواته عليها، لتبحر إلى فرنسا، لكن الأسطول الانجليزى قام بأسر السفن الفرنسية فى البحر المتوسط وأخذوها والجنود كأسرى وأبقوهم فى إيطاليا لعدة شهور بعد مصادرة سلاحهم.

أدرك "كليبر" أن الإنجليز عند رفضهم التوقيع على معاهدة العريش، خططوا لإهانة فرنسا بالإصرار على أخذ جنودها كأسرى، وأدرك أيضا رغبة الإنجليز الملحة فى احتلال مصر. ورأى الفرنسى أن العثمانيين قد توغلوا فى مصر بدون مشقة تنفيذا للمعاهدة، فاحتلوا "قطية" و"بلبيس" و"السويس" و"المنصورة" و"عزبة البرج" و"دمياط"، واستقر القائد العثمانى فى "بلبيس"، ثم تقدم القسم الأول من الجيش

العثمانى إلى "الخانكة" ثم إلى "المطرية" استعدادا لدخول القاهرة.

وكان الجند العثمانيين يدخلون القاهرة فرادى، فوقعت بينهم وبين الفرنسيين مشاحنات، فأصدر كليبر أوامره بمنع الجنود العثمانيين من دخول القاهرة، وأدرك انه لابد أن يوقف هذا الزحف العثمانى على القاهرة، بعد أن تحرج موقفه.

استدعى كليبر قواته المنتشرة استعدادا للرحيل إلى القاهرة، وأعاد تسليح القلاع حول المدينة، وحشد قواته فى "القبة" استعدادا للتحرك. وطلب السلطان العثمانى من الانجليز احترام المعاهدة والسماح للفرنسيين بالسفر، لكن انجلترا أصرت على أن يقوم الفرنسيون بتسليم سلاحهم والرحيل عن مصر بصفتهم اسرى حرب. فقرر " كليبر" أن يحارب، بعد أن اعتبر الإنذار الانجليزى بمثابة نقض لمعاهدة العريش.

دارت معركة عين شمس بين الفرنسيين والعثمالنيين يوم ٢٠ مارس ١٨٠٠ وانهزم العثمانيون، يخلون بلدة من وراء بلدة، أمام الضرب المدفعى الفرنسى المكثف، حتى تقهقروا إلى الصالحية، ثم ارتد العثمانيون من الصالحية حتى حدود فلسطين، وعادت السلطة فى مصر إلى يد الفرنسيين.

وخلال القتال، استطاعت كتيبة عثمانية، تضم بعض المماليك من التسلل هربا من المعارك ودخلت القاهرة. لم

يكن عمل تلك الكتيبة منصبا على قتال الحاميات والقلاع الفرنسية، بل اندس العثمانيون والمماليك وسط الناس، يحرضونهم على الثورة على الفرنسيين، وارتكبوا الفظائع ضد المصريين الذين اتهموهم بالتعاون مع الفرنسيس.

فاض الكيل بأبناء مصر من ظلم الفرنسيين والعثمانيين والمماليك. قامت فى بولاق ثورة خلال تلك الأثناء، هجم فيها الناس على معسكر الفرنسيس فى بولاق واستولوا على ما به من طعام ومؤن يوم ٢٠ مارس ١٨٠٠، وسرت الشجاعة فى قلوب أبناء بولاق فاتجهو إلى قلعة قنطرة الليمون لاقتحامها، لكن مدافع الفرنسيين ورصاصهم صدتهم وقتل منهم أكثر من ثلاثمائة مصرى.

أثارت هذه المذبحة المصريين فى كل مكان، فسرت روح الثورة فى كل أنحاء القاهرة ضد الفرنسيين، واشترك معهم العثمانيون والمماليك، كل منهما له هدف خاص به، يتخذون من المصريين دروعا فى القتال.

أقام الناس المتاريس فى كل الأحياء، وجمعوا الزاد والسلاح من كل مكان استعدادا لقتال الفرنسيس، لا يعلمون أن الجيش العثمانى قد انهزم وتقهقر إلى حدود مصر فى فلسطين. وعلى مدى ثلاثة أيام فقط، استطاع المصريون إنشاء معمل للبارود وآخر لصبّ المدافع.

وصل "كليبر" إلى القاهرة يوم ٢٧ مارس، فوجدها مشتعلة بالثورة فى كل أنحائها، وأدرك مـــدى خطورة

موقفه، فعرض على جنده التوقف عن القتال إلى حين أن ينفذ خطته التى تدور فى عقله.

تفاوض مع العثمانيين على أن يمتنعوا عن مشاركة المصريين فى القتال، وكان وسيطة فى هذا التفاوض، قائدهم مصطفى باشا،أسير كليبر منذ موقعة "أبو قير" البرية. أفهم الفرنسيون الأتراك أن قائدهم انهزم وعاد إلى فلسطين. وقد أذعن العثمانيون للأمر الواقع وتركوا ساحة القتال وألقوا السلاح.

واستدعى كليبر "البرديسى" وكيل مراد بك، ووقع معه اتفاقية، تمنح مراد بك حكم الصعيد من "جرجا" حتى "إسنا" بشرط دفع خراج للفرنسيين. وخرج المملوك مراد بك بالاتفاق وبسلطانه على صعيد مصر، فسحب رجاله من القاهرة واتجه إلى "جرجا" بعد أن استقبل كليبر فى قصره وأمده بالماشية والأغنام.

وبينما كان "كليبر" يفاوض العثمانيين والمماليك، كان الجنرال "بليار" يسير بكتيبة فرنسية مدججة بالسلاح إلى الوجه البحرى، يقاتل العثمانيين ويطردهم من بلدة إلى أخرى حتى استطاع الاستيلاء على كل مدن الدلتا مرة أخرى فارضا الغرامات الهائلة على أهالى مدن مصر المحروسة، يقتل فى المصريين كيف شاء دون وازع أو ضمير. دخل الفرنسيون دمياط، ثم "عزبة البرج" وسار جيشه بعد ذلك إلى المحلة الكبرى وطنطا. لم يرع

الفرنسيون فى ذلك الوقت مقام الـسيد أحمد البدوى، بل اقتحموه واستولوا على التيجان من الذهب الخالص الذى يزن خمسة آلاف مثقال. استطاع الفرنسيون اخضاع الوجه البحرى لمصر فى أوائل ابريل ١٨٠٠، وكان "كليبر" فى ذلك الوقت قد استطاع التخلص من العثمانين والمماليك بدون أى قتال معهم. لم يبق أمام الفرنسى السفاح غير الشعب المصرى الثائر فى ثورة القاهرة الثانية التى بدأت يوم ٢٠ مارس من ذلك العام.

بدأ هجوم الفرنسيين على القاهرة يوم ٤ إبريل ١٨٠٠ بالضرب المستمر من مدفعيتهم بكل القلاع التى تحيط بالقاهرة دون تمييز أو اختيار، بل ضرب عشوائى مستمر، يشعل الحرائق فى البيوت ويقتل الناس دون تفرقة ويهدم الدور ويخرب الطرقات. قتال فى الطرقات بين الفرنسيين والمصريين المتشبثين بأرضهم.

وجاء يوم ٤ إبريل بعد عشرة أيام من النار والدمار، والثوار لا يزالون يقاومون، يحاربون ويسقطون صرعى، ويستمر الباقون فى القتال، ويأتى إليهم المدد ليقاتل. وجه كليبر انذارا إلى القاهرة للتسليم، لكن الثوار رفضوا التسليم أو انهاء القتال. ركز الفرنسيس مدافعهم على حىّ بولاق وضربوه يوم ١٥ إبريل ثـم هجم الجند على الحىّ، يشعلون النار فى البيوت والحوانيت ومخازن الغلال حتى تم تدمير ذلك الحىّ بأكمله، وتهدمت الدور على سكانها

وبادت الكثير من العائلات تحت الانقاض أو فى لهب النار، التى ظلت مشتعلة فى بولاق لمدة ثمانية أيام متوالية.

انتهز كليبر فرصة الهلع التى أصابت أهل القاهرة بعد تدمير حىّ بولاق، وهجم بعساكره على باقى الأحياء فأحالوها إلى خرائب بعد أن حرقوها ودمروها، وقتلوا عشرات آلاف من المصريين، غير أولئك الشهداء الذين دفنوا تحت الأنقاض.

اجتمع علماء القاهرة ومشايخها ومعهم البرديسى مندوب مراد بك وناصف بك قائد العثمانيين وطلبوا من كليبر وقف القتال. طلب الفرنسى أن يرحل العثمانيون والمماليك الموجودين بالقاهرة خلال ثلاثة أيام إلى فلسطين ووعد بالعفو الشامل عن أهل القاهرة.

لم يأمن زعماء الثورة المصريين وعلى رأسهم السيد عمر مكرم نقيب الأشراف والسيد أحمد المحروقى كبير التجار، شرّ الفرنسى كليبر، فرحلا مع العثمانيين، وهاجر معهم آلاف المصريين من سكان القاهرة الذين توقعوا الانتقام من الفرنسيين.

جاء انتقام كليبر من أهل القاهرة هائلا. فقد فرض على أهلها غرامة قدرها اثنا عشر مليون فرنك، نصفها نقدا والنصف الآخر من البضائع والسلاح. وصادر أملاك السيد أحمد المحروقى كبير التجار. وكان انتقام كليبر من

الشيخ محمد السادات عظيما. فقد قرر تغريمه مائة وخمسون ألف ريال.

كان الشيخ السادات - سليل بيت النبوة - له مكانته بين أهل مصر، وعلى الرغم من ثقة بونابرت من أنه كان المحرض الأول وزعيم ثورة القاهرة الأولى، إلا أن الفرنسي المتجبرّ، لم يعاقبه إيمانا منه بالمكانة التى يحظى بها السادات بين أهل مصر. لكن كليبر، لم يفعل مثلما فعل بونابرت، بل صب جام غضبه على الشيخ محمد السادات الذى قاد ثورة القاهرة الثانية على الفرنسيين. فإلى جانب الغرامة الفادحة التى اضطرته إلى بيع كل أملاكه ومتاعه وأوقافه، فقد قام الفرنسيون بإهانته إهانات بالغة، بالسجن والضرب والتعذيب أمام زوجته. وقد أثارت معاملة الشيخ السادات وإهانته، شعب القاهرة الذين رأوا بأنفسهم شيخهم الجليل وهو يُضرب بالعصا فى الطرقات بواسطة جند كليبر، دون أن يتألم أو يصرخ، بل يتحمل العذاب بصبر وأناة المصرى الكاره للفرنسيين، والذى يقدم نفسه وروحه فى سبيل أرضه وأهله عن طيب خاطر. ولم يفرج عن الشيخ الجليل إلا يوم ١٩ يوليه ١٨٠٠ بعد مقتل الجنرال كليبر السفاح.

جاء شاب سورى من حلب يدعى سليمان إلى مصر، وذهب إلى الأزهر الشريف وبقى به ثلاثين يوما، وكل فكرة يدور حول أمر واحد، هو قتل الجنرال كليبر. كانت

دوافعه لقتل الفرنسى هو الانتقام لأهله الذين قتلهم فى فلسطين. وأفضى سليمان إلى أربعة من الأزهريين بنيته وعزمه على تنفيذها.

جاء يوم ١٤ يونيه ١٨٠٠ وكان "كليبر يمشى فى حديقة قصر الألفى - قصر الحاكم - ومعه كبير المهندسين الفرنسيين "بروتان"، فهجم عليهما سليمان وطعن "كليبر" بخنجره فى قلبه ثم بثلاث طعنات أخرى شق فيها أحشائه، ثم عاجل المهندس "بروتان" بستة طعنات فى صدره وبطنه وهرب.

ألقى الفرنسيون القبض على سليمان الحلبى المختفى وراء جدار فى البيت المجاور، ينتظر الفرصة ليهرب، وكان كليبر قد مات. حوكم الشاب والأزهريين الأربعة الذين عرفوا بتخطيطه ولم يبلغوا عنه. استطاع أحد الأزهريين أن يهرب من مصر. وحكم على سليمان الحلبى بحرق يديه أولا، ثم إعدامه على الخازوق. وحكم على الأزهريين الثلاثة بقطع رءوسهم ثم حرق جثثهم.

نادى الفرنسيون بالانتقام لمقتل "كليبر"، وساد الذعر فى القاهرة، فهاجر كثير من العلماء والأعيان والعامة إلى الأقاليم. وهجم الفرنسيون على الأزهر الشريف، يتهمون مشايخه بأنهم كانوا يعلمون بخطة سليمان الحلبى، حتى اضطر مشايخ الأزهر إلى إغلاق الجامع الأزهر، بعد أن أهدر جند الفرنسيس كرامته للمرة الثانية فى تاريخ احتلالهم الأسود لأرض مصر المحروسة.

وتولى الجنرال "مينو" قيادة الفرنسيس فى مصـــر بعد مقتل " كليبر" الذى تصور بعد إخماد ثورة القاهرة الثانية، أنه امتلك مصر تماما، إلى الحد الذى رفض معه رجاء العثمانيين والإنجليز بإعادة التفاوض وتنفيذ معاهدة العريش.

* * *

5

كان الجنرال "مينو" سليل أسرة فرنسية عريقة، لكنه انضم إلى الثورة الفرنسية وانخرط فى جيش نابليون. لم يكن ذو كفاءة عسكرية، لكن بونابرت ضمه إلى حاشيته كنوع من الفخر والزهو بوجود سليل النبلاء فى صفوف جيشه. كان "مينو" يحمل لقب بارون، لكنه تنازل عنه عند انضمامه إلى الثورة الفرنسية.

جرح "مينو" فى معركة غزو الإسكندرية، فعينه بونابرت قائدا لحامية رشيد. وفكر "مينو" وهو فى رشيد أن يتقرب إلى الشعب هناك، فأعلن إسلامه، وتزوج من السيدة "زبيدة" كريمة أحد أعيان رشيد. أطلق "مينو" على نفسه اسما مسلما هو "عبد الله باشا مينو"، وانجب الفرنسى من زوجته المصرية ابنا أسماه سليمان مراد جاك مينو.

لم يكن تولى "مينو" قيادة الحملة الفرنسية فى مصر بعد مقتل "كليبر"، إلا بسبب أنه أقدم الضباط رتبة بعد كليبر، فتولاها بصفة مؤقتة إلى أن أقره نابليون من فرنسا

على تلك القيادة، فأظهر حقده على الضباط الموجودين الذين كان بونابرت وكليبر يعتمد عليهم فى إدارة شئون الحملة الفرنسية فى مصر، قام بعزل العديد من القادة، ونقل بعضهم إلى مواقع غير مؤثرة، واعتمد على فئة من الضباط الذين لا يتمتعون بكفاءة سابقيهم فى الحرب، والذين أصبحوا أسرى ترقيتهم، يطيعون "مينو" فى كل أوامره بلا نقاش.

وعلى الرغم من محاولة اظهار "مينو" إسلامه للمصريين وحرصه على أداء الشعائر الإسلامية علانية إلى درجة حفاظه على صلاة التراويح فى شهر رمضان المبارك، إلا أن سياسته تجاه مصر والمصريين قد رسخت كراهية أبناء مصر للفرنسيس فى عهد ذلك القائد الفرنسى.

صمم على استكمال الغرامات التى فرضها "كليبر" على أهل مصر، واستخدم أقسى أنواع القهر والظلم فى جبايتها. قام جنده بهدم العديد من المساجد والبيوت بحجة توسيع الشوارع. نزعوا كل حجارة المصاطب التى كانت موجودة أمام البيوت والمحال، واضعين فى اعتبارهم أن أحجار تلك المصاطب قد استخدمت من قبل فى عمل المتاريس أمام الشوارع والحارات فى القاهرة.

خرب الفرنسيون فى عهد "مينو" مدينة القاهرة، بما هدموه من مساجد وبيوت وقطع الأشجار والنخيل لتدعيم القلاع والحصون المحيطة بعاصمة مصر المحروسة منعا

لقيام أى ثورة ثالثة. كانت سياسة "مينو" حيال شعب مصر، سياسة إرهاق وظلم ونهب ومصادرة وهدم وتخريب، فزادت نفوس المصريين حنقا ونفورا من حكم الفرنسيين. ورغم اعتناق "مينو" للإسلام، فقد شاهد المصريين بأعينهم وأنفسهم أن سيل المظالم والقهر قد زادت فى عهده طغيانا وفجرا.

عندما وقعت معاهدة العريش، واستعد "كليبر" للرحيل عن مصر، ألغى الديوان. فما الذى يهم فرنسا من مصر ومن أمر شعبها وهى التى سترحل عنها. وظلت مصر منذ ذلك الحين بلا إدارة - ولوشبه وطنية - تدير شئون البلاد. ووصلت حالة الشعب فى شهر سبتمبر ١٨٠٠ بعد مظالم "مينو" إلى قمتها، وماجت النفوس بالضيق، وشظف العيش يحيط بالفقراء والأغنياء على حد سواء. رأى "مينو" أن يعيد الديوان مرة أخرى فى شهر أكتوبر ١٨٠٠ بهدف التهدئة للمشاعر المصرية، فاختار لــه نظاما جــديدا. كـــان الديوان من مجلس واحد من تسعة أعضاء كلهم من المصريين المسلمين، ورأسه الشيخ عبد الله الشرقاوى.

ازدحم الديوان بكثرة الشاكين، فأصبح وكأنه محكمة استئناف لها حق نقض الأحكام التى يتبين خطؤها عند التطبيق، وإصدار الفتاوى، وجعله "مينو" مجلسا استشاريا للحكومة لتقرير العدالة وما يتعلق بإدارة المساجد والتعليم والحج. كما جعل الفرنسيون للديوان حق انتخاب القضاة

وترشيحهم وعزلهم. كان الديوان بمثابة هيئة استشارية للحكومة للنظر فى الشئون المدنية والدينية بمصر. عندما تصور "مينو" أن الأمر قد استتب له فى مصر، وبدأ الديوان فى عمله، وهدأت نفوس المصريين إلى حد ما، تفشىّ وباء الطاعون فى مصر من يناير إلى إبريل ١٨٠١ فكان يموت به فى اليوم الواحد نحو مائة من الأهالى وعشرين من الفرنسيين. وكانت شدة الوباء قد تفشت فى صعيد مصر وخاصة أسيوط. وفقدت البلاد فى تلك المحنة نحو مائة وخمسين ألف ميت. وقد وضع الفرنسيون نظاما للوقاية من العدوى وعرض النظام على الديوان فوافق أعضاؤه عليه، وبذلك تم حصر الوباء بالقاهرة فى أضيق الحدود.

لم يهدأ الإنجليز منذ هزيمة العثمانيين فى معركة عين شمس، فكانت على اتصال مستمر بالدولة العثمانية لإقناعها بإعداد حملة عثمانية انجليزية للزحف على مصر، كانت أنظار انجلترا مركزة على مصر وضرورة احتلالها واتخاذها قاعدة حربية وبحرية لتضمن سيطرتها على البحرين المتوسط والأحمر للاطمئنان على مستعمراتها فى الهند. وضعت انجلترا خطة الهجوم على مصر على أساس هجوم جيش عثمانى برا من فلسطين، وجيشا بحريا يهجم من الإسكندرية عماده الأسطول الانجليزى ومعه عمارة تركية، وهجوم ثالث من السويس بواسطة جيش من الهند.

كانت عينا بونابرت، الذى استولى على السلطة فى فرنسا، لا تزال مسلطة على مصر، يدرك ما يقوم به الانجليز - أعداء فرنسا - من استعدادات لغزو مصر والقضاء على جيش فرنسا، فأرسل مددا عسكريا إلى "مينو"، وقعت بعض السفن الفرنسية فى أسر الأسطول الإنجليزى فى البحر المتوسط، واستطاعت بعض سفن نابليون أن تهرب من الحصار البحرى وتصل إلى الإسكندرية بالجنود والذخيرة والمدافع. لكن استيلاء انجلترا على جزيرة "مالطة"، وانشغال نابليون بحروبه فى أوروبا ضد النمسا،حرم الفرنسيين من استمرار الإمدادات العسكرية الفرنسية، فأصبح "مينو" وحيدا فى مصر، وبدأت انجلترا والدولة العثمانية فى تنفيذ مخططها لغزو مصر.

أرسل مراد بك، حليف الفرنسيين، نائبه "عثمان البرديسى" إلى "مينو"، وقال له

- لقد علم مراد بك من فلسطين عن طريق صديقه المملوك " إبراهيم بك"، أن الجيش العثمانى قد بدأ التحرك فى اتجاه العريش تمهيدا للهجوم على مصر.

قال له مينو:

- لقد هزمناهم من قبل وسوف نهزمهم إذا وصلوا إلى حدود مصر.

قال البرديسى:

– وعلم مراد بك ايضا أن الأسطول الإنجليزى العثمانى قد أبحر من تركيا قاصدا إلى الإسكندرية، ولابد من مواجهته.

قال المغرور "مينو" ببرود شديد:

– قل لمراد بك لا يشغل باله بهذا الأمر. إن الفرنسيين قادرون على هزيمة أى جيش. عندما يصلون سوف نحاربهم ونهزمهم.

خرج البرديسى عائدا إلى سيده مراد بك فى الصعيد، وقال للجنرال "داماس" أحد قواد الحملة الفرنسية وهو يودعه:

– إن قائدا مثل الجنرال مينو سيكون سببا فى ضياع الجيش الفرنسى.

وصل الأسطول الإنجليزى ومعه بعض القطع البحرية التركية إلى خليج "أبو قير" يوم أول مارس ١٨٠١، وظلت أسبوعا كاملا تراقب الشاطئ المصرى. وفى الثامن من مارس نزلت الجنود الانجليز فى أبى قير، واشتبكت مع الفرنسيين فى معركة شرسه، انتهت بحصار قلعة أبى قير، إلى أن احتلوها بعد تقهقر الفرنسيين إلى "المندرة"، فنزل باقى الجنود الإنجليز إلى الشاطئ وبدأوا الزحف على الإسكندرية.

زحف الانجليز يوم ١٣ مارس ١٨٠١ حتى وصلوا إلى "سيدى جابر"، فالتحموا مع جيش فرنسا فى معركة يذكرها التاريخ الحربى بسبب كثرة القتلى والجرحى من الجانبين. فقد الانجليز فى تلك المعركة ١٣٠٠ قتيل وجريح بينما خسر الفرنسيون نحو سبعمائة قتيل وجريح. وانسحب الفرنسيون إلى مدينة الإسكندرية، ولم يستطع الانجليز التقدم إلى وسط المدينة بسبب الضرب المدفعى الفرنسى المركز من قلعتى "كوم الدكة" و"كوم الناضورة"، فتحصن الانجليز فى المرتفعات التى تحيط بالمدينة.

ارتبك "مينو" بعد معرفته بهزيمة جيشه فى إبى قير وسيدى جابر، فهو لم يستعد لذلك كما كان ينبغى له أن يفعل، بل وزع جيشه فى دمياط وبلبيس ومدن الدلتا، ولم يستخدم سياسة خلفه أو سياسة بونابرت الحربية فى تجميع جيشه والهجوم به.

عندما أحس "مينو" بمدى الخطر الذى أحاق بجيشه، قام باستدعاء الكتائب المنتشرة فى كل مكان بمصر، وأخذ نصف جيشه وارتحل إلى الإسكندرية لمواجهة الغزو الإنجليزى. ترك "مينو" فى القاهرة نصف جيشه الآخر وعين الجنرال "بليار" لجيش القاهرة.

قبل أن يسافر مينو إلى الإسكندرية لملاقاة الإنجليز، كانت القاهرة تموج بأخبار الأسطول الإنجليزى العثمانى ونزوله بالإسكندرية وقرب تحرير مصر من ربقة

الاستعمار الفرنسى. لم يعرف "مينو" كيف يعالج هذا الأمر بحكمة وروية، ففى ذهنه الثورتين المصريتين اللتين صاحبتا كل هجوم على مصر،بأمل هزيمة الفرنسيين ورحيلهم عن مصر.

تغلبت الوحشية الفرنسية على العقل والتروى، فأصدر "مينو" تعليماته قبل سفره، باعتقال السيد محمد السادات وثلاثة من أعضاء الديوان ووضعهم فى القلعة، وتحميل أعضاء الديوان الباقين مسئولية أية ثورة أو اضطرابات تسود القاهرة أثناء غيابه.

عندما هجم الجيش العثمانى البرى، واستطاع الاستيلاء على العريش، اشتدت حالة الفزع بين الفرنسيين فى القاهرة، فقام "بليار" باعتقال المشايخ والأعيان واتخاذهم كرهائن لديه، لضمان الهدوء فى القاهرة. وعندما ازداد الفزع الفرنسى من تطور الأحداث بسرعة، قاموا بنقل سلاحهم ومتاعهم إلى القلعة والتركيز على تسليحها وتأمينها استعداد لملاقاة الجيش العثمانى. وتصور المصريون الذين عاينوا الموت من قبل بسبب مدافع القلعة الفرنسية، أن الفرنسيين سوف يضربون القاهرة مرة ثالثة، فهاجر عدد كبير من أهالى القاهرة إلى القرى والأقاليم البعيدة عن القاهرة.

بلغ "مينو" وجيشه مدينة الإسكندرية يوم ١٩ مارس ١٨٠١ واستعد للمعركة مع الانجليز الذين أتموا إنزال باقى

جنودهم وسلاحهم. رأى "مينو" أن يبدأ بالهجوم خوفا من قيام الانجليز بحصار الإسكندرية من البر أيضا. هاجم الفرنسيون يوم ٢١ مارس فى معركة عرفت بإسم "معركة كانوب" وهى المنطقة المعروفة حاليا بإسم "باب شرقى". تعتبر المعركة من أهم المعارك التى أسفرت عن نتائج حربية وسياسية خطيرة أثرت على مصر، والتى أسماها الانجليز فى تاريخهم الحربى بمعركة الإسكندرية.

التقى الجيش الفرنسى تحت قيادة "مينو" غير المؤهل عسكريا لقيادة معركة، مع ضباط غير مقتنعين بقدرته العسكرية وأوامره غير المدروسة، مع جيش انجليزى أكثر عددا وأكثر تنظيما. كانت النتيجة لتلك المعركة هى انسحاب "مينو" وجيشه إلى داخل حدود مدينة الإسكندرية بعد أن خسروا ألفين وخمسمائة قتيل وجريح، فى حين خسر الانجليز ألف وخمسمائة قتيل.

بقى الوضع على ما هو عليه عدة أيام. الفرنسيون داخل أسوار مدينة الإسكندرية، والإنجليز خارجها يحيطون بهم. يحاصرونهم بحرا بأسطولهم، وبرا بجيشهم. انفتح الطريق أمام الانجليز للزحف إلى القاهرة وباقى المدن المصرية لاحتلالها، لكنهم ترددوا. وصل الأسطول العثمانى إلى الإسكندرية وأنزل قوات الإنكشارية إلى الإسكندرية فانضموا إلى الإنجليز.

6

صمم قائد الانكشارية العثمانية على احتلال مصر وطرد الفرنسيين، وانفتحت شهية الإنجليز لاحتلال مصر المحروسة بدلا عن الفرنسيين، فزحف الجيش الانجليزى على رشيد واستطاع احتلال قلعة رشيد فى إبريل ١٨٠١، وهى القلعة التى اكتشف منها الفرنسى "بوشار" حجر رشيد. فعندما احتل الفرنسيون القلعة وقاموا فى أغسطس ١٧٩٩ بإصلاحها وترميمها عثروا على ذلك الحجر، الذى حل لغز اللغة الهيروغلوفيه بواسطة " شامبليون" .

وقام القائد الانجليزى "هتشنسون" بقطع سد أبو قير، فزحفت مياه البحر على ترعة الإسكندرية الحلوة التى يشرب منها أهل الإسكندرية، فأحالت عذب مائها إلى ملح أجاج، إمعانا من الانجليز فى حصار الفرنسيين بالإسكندرية، دون النظر إلى المصريين بالمدينة، الذين لا ناقة لهم ولا جمل فى ذلك الأمر. خرّبت المياه المالحة نحو ثلاثين قرية، فماتت زروعها وهرب أهلوها منها.

لم يضيع الانجليز وقتا، بل زحفوا بعد استيلائهم على رشيد، إلى الرحمانية - صلة الاتصال بين جيش القاهرة وجيش الإسكندرية الفرنسيين- واستطاع الانجليز والعثمانيون الاستيلاء على المدينة بعد معركة قصيرة انسحب بعدها الفرنسيون تاركين سلاحهم وسفنهم فى النيل محملة بالذخيرة والسلاح، فاستولى عليها الانجليز وتراجعت القوات الفرنسية من الرحمانية إلى القاهرة وانضمت إلى الجيش الفرنسى بها. وبذلك انقطع الاتصال تماما بين جيشى فرنسا فى القاهرة وجيشها فى الإسكندرية.

وبينما كان الجيش الفرنسى المحاصر فى الإسكندرية يضمد جراحه، كان "مينو" يُحمّل قادة جيشه مسئولية الهزيمة أمام الانجليز، فنفى أربعة من جنرالات جيشه إلى فرنسا بعد عزلهم.

زحف الجيش العثمانى القادم من فلسطين إلى القاهرة. تحرك الجيش من العريش وتابع سيره دون أية مقاومة من الفرنسيين الذين أخلوا المدن وارتدوا إلى القاهرة، حتى وصل العثمانيون إلى "بلبيس" فاحتلوها.

قرر الجنرال الفرنسى "بليار" حاكم القاهرة مهاجمة العثمانيين فى بلبيس، فترك حامية صغيرة فى القاهرة وخرج بعشرة آلاف جندى، فالتقى جيشه مع الجيش العثمانى في موقعة "الزوامل" بين القاهرة وبلبيس يوم ١٦

مايو ١٨٠١، وهى المعركة التى انتهت بهزيمة الفرنسيين فتراجعوا إلى القاهرة. وفى تلك الأثناء، استطاع العثمانيون الاستيلاء على دمياط وقلعة البرج وقلعة البرلس بعد أن تركها الفرنسيون، دون قتال.

أحس الفرنسيون بحرج موقفهم فى القاهرة، فطلبوا من حليفهم مراد بك أن يشترك معهم فى الدفاع عن القاهرة. سار مراد بك بجيشه، لكن الطاعون أصابه فى سوهاج حيث مات بها. قال الشيخ عبد الرحمن الجبرتى عضو الديوان عندما علم بوفاة مراد بك:

- كان من أعظم الأسـباب فى خراب الإقليم المصرى بما تجدد منه ومن مماليكه واتباعه من الظلم والتهوّر، فلعل الهمّ يزول بزواله.

لم يجد "بليار" مع حرج موقفه إلا تهديد المصريين إذا ما قاموا بأى ثورة. مؤكدا لأعضاء الديوان أن الجيش الفرنسى قادر على هزيمة الأتراك والانجليز وفى ذلك الوقت، كان الجيش الانجليزى قد بلغ "امبابة"، بينما وصل الجيش العثمانى إلى "القبة"، فتم حصار الفرنسيين بالقاهرة من شرقها وغربها وشمالها وجنوبها.

عقد "بليار" مجلسا حربيا من القواد الفرنسيين، تشاورا فى وضعهم الحرج، واحتمالات الحرب بين عشرة آلاف جندى فرنسى مقابل أربعين ألف انجليزى وعثمانى. انتهى المجلس إلى رأى التفاوض على مبدأ الجلاء عن مصر

والخروج منها بأسلحتهم ومتاعهم، وسفرهم إلى فرنسا على سفن تركية وانجليزية.

بعث الجنرال "بليار" بمندوبه إلى الإنجليز، يعرض عليهم التفاوض على قاعدة الجلاء. وافق الانجليز والعثمانيون على التفاوض الذى استمر لمدة أربعة أيام فقط انتهت بتوقيع اتفاقية الجلاء عن مصر يوم ٢٧ يونيه ١٨٠١. كانت الاتفاقية مشابهة لمعاهدة العريش التى لم يوقعها الانجليز فى ذلك الوقت، لكنهم وقعوها فى تلك المرّة، وما بين المرتين سقط آلاف القتلى وتهدمت ديار وجاع مصريون وخربت الزروع، بواسطة متحاربين لا يمتلكون شبرا من الأرض التى يحاربون فوقها، تاركين العذاب والمعاناة لشعب مصر.

أخلى الفرنسيون القلعة وباقى القلاع والحصون وانتقلوا إلى الروضة والجيزة، وركبوا السفن التى أعدت لنقلهم إلى رشيد فى ثلاثمائة مركب، ومنها ساروا إلى أبى قير، ومعهم رفات الجنرال كليبر لدفنها فى فرنسا. أبحرت السفن من الإسكندرية يوم أول أغسطس ١٨٠١ إلى فرنسا. غادر أرض مصر ١٣,٠٠٠ رجل منهم تسعة آلاف جندى صالحون للقتال والباقون من الجنود المرضى والعلماء والمرافقين. رحل نصف الجيش الفرنسى، وبقى "مينو" والنصف الثانى من الجيش محاصرا فى الإسكندرية.

استولى العثمانيون والانجليز على القاهرة، يزهون

بانتصارهم على الفرنسيين وعودة سلطان العثمانيين على أرض المحروسة، وأحلام الانجليز تلاعب خيالهم وتشحذ فكرهم فى كيفية الاستيلاء على هذه الأرض الطيبة. بقى الجنرال "هتشنسون" فى القاهرة فترة، يستطلع فيها الموقف ويناور العثمانيين، محاولا تثبيت أقدامه فى القاهرة. وقرر القائد الانجليزى أن يتحرك إلى الإسكندرية لقتال "مينو" وطرد بقايا الجيش الفرنسى من الأرض المصرية.

كان موقف الفرنسيين بالإسكندرية صعبا مع الحصار المفروض عليهم بها. لامدد يأتيهم من البحر أو من البر، وشحّت المياه العذبة بعد قطع سد أبى قير. وفجأة، استطاعت إحدى السفن الفرنسية الحربية أن تتسلل إلى ميناء المدينة. كانت السفينة الفرنسية، واحدة من أسطول فرنسى بعث به نابليون إلى "مينو" بقيادة الأميرال "جانتوم"، ظل عدة أشهر فى البحر المتوسط، يقترب من الإسكندرية، ثم يفر منها عائدا إلى فرنسا خوفا من الأسطول الانجليزى. وفى تلك المرة أمره نابليون بالإبحار إلى الإسكندرية وفى حالة فشله فى دخولها، عليه أن ينزل جنوده فى ليبيا، ويمضى سيرا مع الجيش حتى الإسكندرية.

استطاعت السفينة الحربية "هليوبوليس" أن تتسلل إلى ميناء الإسكندرية، بينما خشى الأميرال "جانتوم" دخول الميناء، واتجه إلى "بنغازى" واستعد لإنزال جنوده بها،

فهب الأهالى للدفاع عن أرضهم، فقرر الفرنسى العودة بأسطوله إلى فرنسا مرة رابعة.

علم الانجليز بما حدث، وتسلل السفينة "هليوبوليس" إلى الإسكندرية، فقام الانجليز بتشديد الحصار البحرى على الإسكندرية، وقطع كل السبل على مدّ الفرنسيين المحاصرين بأى مؤن أو جنود. انقطع كل أمل للفرنسيين فى وصول المدد إليهم، فى الوقت الذى تلقى الجيش الانجليزى والعثمانى المدد والمؤن من القاهرة وباقى الأقاليم المصرية التى احتلها الجيشان.

بلغ "مينو" تسليم الجنرال "بليار" للإنجليز ورحيله عن مصر، فثار واعتبر تسليمه بمثابة تفريط فى الشرف العسكرى الفرنسى، وأرسل إلى بونابرت يُحمّل "بليار" مسئولية الجلاء عن مصر.

شددّ الانجليزى "هتشنسون" الحصار على الإسكندرية، وبدأ القتال بين الدولتين الأوروبيتين على أرض مصر الطيبة، واستطاع الإنجليز احتلال قلعة العجمى، ثم طابية "القبارى" بعد قتال شديد، فازدادت حالة الفرنسيين سوء فوق ما بهم من جوع وعطش ونقص فى الجند والمؤن، واشتد الضيق بالحامية الفرنسية وفتكت بهم الأمراض ونفدت الأقوات حتى اضطروا لأكل لحوم الخيول، وتأكد الجنود الباقين أن استمرارية الحرب أصبحت فى شبه



المستحيل وهم يواجهون جيشا يفوقهم عددا بعشرة مرّات على الأقل. واتفق قادة الجند على مفاتحة "مينو" فى الأمر.

بينما كان "مينو" يفكر فى التفاوض استجابة لرأى قواده وجنده، فوجئ بوصول زوجته المصرية وابنهما سليمان وحاشيتهما سالمين إلى الإسكندرية، بعد أن سمح لهما القائد الانجليزى بسفرها وحاشيتها من القاهرة إلى الإسكندرية للحاق بزوجها.

بعث "مينو" إلى الإنجليز يوم ٢٦ أغسطس ١٨٠١، يطلب وقف القتال لثلاثة أيام ريثما يعد طلب التسليم، فأجابه الانجليزى إلى طلبه. دعا "مينو" قواد الجيش الفرنسى إلى عقد مجلس حربى. تداول المجلس فى الموقف واستقر الرأى على أن الحالة لا تسمح بأى حال بالاستمرار فى الدفاع عن الإسكندرية. ساقوا الأدلة على ذلك بأن الحصار المحكم على المدينة يفقدهم كل أمل فى وصول المدد إليهم، وأن نسبة الفرنسيين إلى الانجليز والعثمانيين هى واحد إلى عشرة، بالإضافة إلى الأمراض ونقص الغذاء والمياه. كان "مينو" يعرف كل تلك الأسباب التى تجعله أمام خيار واحد، هو التسليم.

اتفق المجلس الحربى الفرنسى على إعداد شروط الجلاء، وكلفوا لجنة منهم بإعدادها، ثم اختلفوا فيما بينهم على تلك الشروط، إلى أن توصلوا إلى حلول وسط بعثوا

بها إلى القائد الانجليزى، فبعث الانجليزى إليهم بشروطه التى يفرضها الجيشان الانجليزى والعثمانى للجلاء.

تم الاتفاق على شروط الجلاء الفرنسى عن مصر يوم ٣١ أغسطس ١٨٠١ ووقع عليها الانجليز والعثمانيين و"مينو". أعطت الاتفاقية مهلة قدرها عشرة أيام لكى يتم إخلاء المدينة والقلاع وتسليم السفن الفرنسية إلى الانجليز، وأن يتم نقل الجنود الفرنسيين على سفن انجليزية بأسلحتهم وذخائرهم وعشرة مدافع فقط. وتضمنت الاتفاقية أيضا ان يقوم أعضاء المجمع العلمى الفرنسى ولجنة العلوم والفنون بتسليم جميع الآثار والخرائط والرسوم والمخطوطات التى جمعوها من مصر إلى الإنجليز.

بدأ الفرنسيون فى تسليم القلاع والاستحكامات والمدافع والسفن الحربية بالثغر إلى الانجليز. وعندما جاء دور تسليم المقتنيات الخاصة بأعضاء المجمع العلمى ولجنة العلوم، امتنع أولئك الأعضاء على حرمانهم من ثمرة عملهم وجهودهم واكتشافاتهم. التقى ثلاثة منهم بالجنرال "هتشنسون" وأنذروه بأنه إذا صمم على تسلم أبحاثهم فإنهم سوف يحرقونها، يحمّلونه تبعة حرمان العلم من تلك النفائس.

قبل الانجليزى مكرها أن يتنازل عن تطبيق ذلك الشرط، وسمح لهم بأخذ مقتنياتهم، لكنه منعهم من أخذ

العاديات التى أرادوا تهريبها معهم وقام بحجزها منهم وقال لهم:

- هذه آثار مصر القديمة، هى ملك لمصر ولابـــد أن تبقى بها. وكان من أهم تلك العاديات الأثرية، حجر رشيد.

ما حرّمه الانجليز على الفرنسيين، أباحوه لأنفسهم، فقد سرق الإنجليز كل تلك الآثار التى صادروها من الفرنسيين، وبعثوا بها إلى لندن، ومن ضمنها، حجر رشيد. زان الإنجليز متاحفهم بالآثار المصرية التى سرقوها من أرض مصر المحروسة.

كان "مينو" هو آخر من رحل من الفرنسيين عن أرض مصر يوم ١٨ أكتوبر ١٨٠١، وسبقه جنده، على ظهر السفن الإنجليزية التى أقلتهم إلى الثغور الفرنسية. رحل من مصر ٧٢٠٠ جندى و١٥٠٠ من البحارة و١٤٠٠ مريض وجريح، و٦٨٠ مدنى فرنسى. وانتهت برحيل "مينو"، الحملة الفرنسية وعلى مصر بعد احتلال دام لثلاثة أعوام وشهرين.

وبرحيل الفرنسيس، تنازع السلطة فى مصر ثلاث قوات، مختلفة المصالح ولكل منها أغراضها الخاصة. كانت قد اتحدت على محاربة الفرنسيين وطردهم من مصر، فلما تم لهم النصر، بدأت كل قوة تعمل على تحقيق أطماعها الخاصة فى وادى النيل.

رأى العثمانيون أن الفرصة سنحت لهم مرة أخرى لحكم مصر حكما مطلقا، فهى فى رأيهم إحدى ولاياتهم التى فتحوها بحد السيف. منح الفرنسيون لهم الفرصة فى انفاذ جيشين عثمانيين إلى مصر. الأول بقيادة الصدر الأعظم وقوامه ثلاثين الف جندى، والثانى بقيادة حسين قبطان قائد الأسطول العثمانى الراسى فى خليج أبى قير، وعدد الجيش ستة آلاف مقاتل معظمهم من الأرناؤوط والانكشارية ويحتلون المواقع القريبة من الثغر.

ورأى الانجليز، أنها الفرصة المواتية لاحتلال وادى النيل بجيشين. الأول بقيادة "هتشنسون" ومعه ستة عشر ألف جندى، واحتل الاسكندرية ورشيد ودمنهور، والجيش الثانى الذى جاء من الهند واحتل السويس والجيزة. احتلت انجلترا الثغور المصرية لتبقى عيونها مفتوحة تجاه مستعمراتها الأخرى فى الهند، والتطلع إلى أحلام بناء امبراطوريتها العظمى.

وفرح المماليك بعودتهم إلى مصر، وهم الذين انضموا إلى الانجليز بعد اقتناعهم بأن الفرنسيين حلفائهم سيلاقون الهزيمة والرحيل عن مصر. تصور المماليك أن حقهم الطبيعى هو العودة لحكم مصر بأسلوبهم القديم.

ثلاث قوات احتلال رزحت تحتها مصر، بعد رحيل الفرنسيين إلى غير رجعة. يمارسون مباراة الصراع الخفى والعلنى فيما بينهم، لكى يفوز أحدهم بحكم مصر

المطلق. وعلى الجانب المصرى الذى اكتوى بنير أربع لصوص يحاولون الاستيلاء على أرضهم، كانت المحن والمصائب التى مرت بمصر وأهلها، كفيلة بإزكاء الروح الوطنية بينهم، ومحاولة إبراز الهوية المصرية الخالصة.

* * *

7

نظر المدرس إلى طلبته، وقد أغرورقت عيناه بالدموع، والصمت يغلف الفصل كله. قال الأستاذ وهو يمسح عينيه:

– هكذا انتهت فترة الاحتلال الفرنسى لمصر. ثلاث سنوات وشهران من القتل وسفك الدماء ونهب الأموال وتخريب البلاد، وضياع الآثار المسروقة.

قال أحد الطلبة:

– خرج جيش فرنسا يا أستاذ من مصر، وجاء بدلا عنه ثلاث جيوش كما قلت لنا. الإنجليز والعثمانيين والمماليك.

رد المدرس بقوله:

– أخرج الأجنبى من مصر، أجانب آخرين. لكن العبرة بالنهايات يا أبنائى. لم يطرد الأجانب الآخرين سوى أجدادنا المصريين، رحمة الله عليهم وعلى شهداء مصر الذين سقطوا على مدى تاريخها الطويل

العظيم، يدافعون عن أرضها، عن عرضها، عن أولادها، عن حريتها، عن مجدها وتاريخها. مصر يا أبنائى هى الأمة الوحيدة التى حاول كل البشر احتلال أرضها، أرض الخير التى يحفظها الله دائما من كل شر. لم تستطع دولة أن تبقى فوقها. أذابت القومية المصرية كل دخيل عليها، فطردت منها الأجنبى شر طرده.

ران الصمت مرة أخرى على الجالسين. قال طالب:

- نريد أن نعرف يا أستاذنا، ماذا جرى على أرض مصر من صراع بعد خروج الفرنسيين، ووجود ثلاث قوى على أرض بلادنا تتصارع على احتلالها.

قال المدرس:

- نعم من حقكم يا أبنائى أن تعرفوا تاريخ أمتكم العظيمة. فلقد شهدت تلك الفترة المظلمة، بزوغ نجم القومية المصرية الحقة. كانت تلك الفترة هى بداية بناء مصر الحديثة. مصر التى استطاعت أن تهزم العثمانيين والانجليز والتخلص من المماليك. مصر التى فرضت سيطرتها على أرضها مستقلة، تضارع فى نهضتها، الدول القوية التى يحسب لها حسابها.

وصاح الطلبه جميعا، يطالبون أستاذهم بالحديث، وقد امتلأوا حماسا ووطنية، يريدون تذوق لذة

الإحساس بالحرية والفخر ببلدهم، بعد أن أرهقت مشاعرهم تناحر الغازين على امتلاك بلدهم.

ابتسم المدرس وقال لتلاميذه:

– ليست المسألة بضع كلمات لتشرح لكم تاريخ تلك الفترة الهامة من تاريخ مصر، إنها تحتاج إلى مساحة كبيرة من الوقت لكى نفهم ونعى أحداث واحدة من أهم فترات تاريخ مصرنا الحبيبة. فهى فترة انتقال المصريين من عهد العبودية فى أرضهم إلى عهد السيادة فوقها. فإلى فرصة أخرى إن شاء الله.

المراجع

(١) المرجع التاريخي لهذا الكتاب أساسه كتاب **(تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر) للمؤرخ المصرى الكبير: عبد الرحمن الرافعى.**

ومؤرخنا العظيم عبد الرحمن الرافعى يستند فى كتابه على ما كتبه مؤرخ مصر الكبير عبد الرحمن الجبرتى ليبين وجهة النظر المصرية فيما جرى من أحداث فى تلك الفترة، لكنه يؤكد أو يتحفظ على بعض ما جاء به بعد رجوعه إلى المصادر الفرنسية التى أوردت تفاصيل كثيرة عن القتال وما دار بين الفرنسيين وبين المصريين من معارك ومناشاوت،وخاصة عند احتلال الإسكندرية وما جرى فيها، حيث ان الجبرتى كان يعيش فى القاهرة ويذكر ما تواتر من أنباء القتال فى الإسكندرية.

إحدى صفات المؤرخ الموثق والتى يجب أن تتوافر فى سرد التاريخ، الاعتماد على التوثيق والحيدة فى السرد. هذا هو ما فعله مؤرخنا العظيم عبد الرحمن الرافعى، اقتداء بمؤرخنا الكبير عبد الرحمن الجبرتى، هذان المؤرخان هما بحق من مفخرة مصر فى عالم التأريخ. رحمهما اله رحمة واسعة.

(٢) استعنت عند وضع هذا الكتاب، بالمرجع المصرى الذى يعكس إحساس المصرى بالأحداث، **(تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار) للعلامة الشيخ عبد الرحمن الجبرتى،** وذلك لاستنباط الروح المصرية الخالصة فيما جرى، دون التأثر بما ذكره الفرنسيون فى وثائقهم التى أوردها عبد الرحمن الرافعى لتوثيق تأريخه لتلك الفترة. وتلك الأحاسيس المصرية لم يغفلها عبد

الرحمن الرافعى أبدا فى كتابه، لكنه حاول ألا ينفعل بها مراعاة لمبدأ الحيدة فى سرد التاريخ، مهما تألم الكاتب وهو يؤرخ لبلده

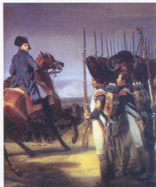
(٣) وكان مصدرى الثالث فى وضع هذا الكتاب هو **كتاب (وصف مصر) الذى ألفه علماء الحملة الفرنسية وترجمة: زهير الشايب.** وهو تفاصيل دقيقة عن مختلف أوجه الحياة فى مصر من وجهة نظر الفرنسيين العلماء الذين حشدهم نابليون بونابرت معه فى غزوته لمصر.

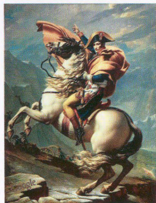
(٤) ولقد استعنت أيضا كأحد المراجع لهذا الكتاب بكتاب **(الصهيونية وتركيا)** للكاتب التركى: **د. ياشار قوطلى آى والذى قام بترجمته للعربية د. احمد فؤاد متولى،** وقد فضح الكاتب التركى الاتصالات والصلات بين اليهود والعثمانيين وأشار إلى مؤامرة اليهود الفرنسيين فى حملة نابليون على مصر وفلسطين.

وكان نتيجة ظهور ذلك الكتاب فى تركيا، اختفاء كل النسخ التى طبعت فور صدورها، كما اختفى المؤلف فجأة ولم يظهر له اثر بعد ذلك. وهى عادة يهودية لتخلص ممن يكتبون عن اليهود والصهيونية، إما بإضفاء صفة الانتحار عليهم، أو التخلص منهم فى هدوء ودون إعلان.

(٥) وقمت بإعادة قراءة كتاب (**اليهود تاريخيا وعقيدة**) **الذى كتبه الدكتور كامل سعفان** والذى استعنت به فى كتابى هذا وقد أورد الكتاب نص خطاب نابليون فى القدس، وكذلك ما نشرته الصحف الفرنسية حول الموضوع مستقيا ذلك، من مصادرها الفرنسية الموثقة.

والله ولى التوفيق









978-977-287-965-5
9 789772 879655

دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع
٥٠ شارع الشيخ ريحان - عابدين- القاهرة
٢٧٩٥٤٢٢٩
www.sbhegypt.org
e-mail : sbh@link.net
: Info@sbhegypt.org